الجوانب الإيجابية والسلبية للاستعمار الإسباني في أمريكا اللاتينيّة بين السنوات (1492م–1825م)

الدكتور حسام جميل النايف *

الملخص

استمر الوجود الإسباني في أمريكا اللاتينية أكثر من ثلاثة قرون (1492م–1825م) شهدت القارة الأمريكية خلالها مجموعة من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نتيجة الاستعمار الإسباني. وكان لهذا الاحتكاك كثير من الجوانب السلبية والقليل من الإيجابية.

فمع أن الإسبان قد جلبوا للقارة الأمريكية النهضة الأوروبية فضلا عن كثير من الحيوانات والنباتات والمخترعات القديمة والحديثة التي لم تكن معروفة في القارة، إلَّا أنَّ لوجودهم أثراً سلبياً كبيراً في أمريكا اللاتينية وسكانها، وتجلى هذا الأثر في المؤسسات الدينية والإدارية التي أنشأها الإسبان والتي تعود في جذورها إلى العصور الوسطى، فضلاً عن السياسة الاقتصادية القائمة على احتكار السوق الأمريكية اللاتينية لحساب الاقتصاد الإسباني، وعدم السماح بتطور الاقتصاد الأمريكي المحلي بمجالاته كلها ، ممَّا سبَّب عدداً من الآثار السلبية التي أثرت في هذه القارة و مازالت تأثيراتها حتى أيامنا هذه.

*– قسم التاريخ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق

مقدمة:

إنّ أيَّ غزوٍ لابدَّ أن يترك آثاره السلبيَّةَ في الشعوب الَّتي خضعت له، ولم يكن الغزو الإسبانيُّ خارجاً عن القاعدة، فقد تغيَّر العالم الجديد إثر اصطدامه مع المؤسسات الإسبانيَّة القديمة سواءٌ بعيوبها أم بميزاتها. هذا وقد انتشرت المساوئ الإسبانية في أمريكا اللاتينية، وراحت تزداد وتتعدَّد حتَّى نجم عنها مساوئ أخرى؛ إذ أتى إلى العالم الجديد مع قوارب عصر النهضة مؤسساتٌ تعود إلى القرون الوسطى.

فقد وجّه مذهب الفرديَّة أو الأنانيَّة الإسبانية – الَّذي استقرَّ في أمريكا اللاتينية، والذي أدَّى إلى عدم نظام المكتشفين والغزاة – مجرى تاريخ أمريكا اللاتينيَّة إلى طرق العنف، والثورة، والفوضوية، والحروب الأهلية. وتحوَّل الصِّراع التقليديُّ في شبه الجزيرة الإيبيرية بين النعرة الإقليمية والمركزية الإدارية في أمريكا اللاتينية إلى صراعٍ بين القوى الَّتي تميل إلى المركزية وبين القوى الأخرى التي كانت تبتعد عنها وترفضها، وأحياناً كانت تعطيه وحدةً وتماسكاً، وأحياناً أخرى كانت تفتِّته إلى ذراتٍ تنقسم وتتشتَّت.

ومهما يكن فإنَّ الفكرة الأفلاطونية القديمة التي كانت تقول: *"**إنَّ بعض النَّاس قد وُلد ليحكم وبعضهم الآخر قد ولد ليكون محكوماً**"*، قد تعرّضت للهزيمة في أمريكا اللاتينية حينما انحطّت السلطات، وتحوَّلت إلى إداريين غير مؤهَّلين إثر الفساد الناجم عن محاباة الأقارب، وذوي النفوذ وعن المفاهيم السطحية لدور الكنيسة ورجال الدين. ونظراً إلى أنَّ السَّيف قد عاونه الصَّليب[1] فإنَّ الغزو الذي تحقَّق خلال النِّصف الأوَّل من القرن الأوَّل للاستعمار كان عن طريق الحملات الَّتي اعتمدت اعتماداً رئيسياً على الجنود والرهبان، لذلك حمل تاريخ أمريكا اللاحق هذين الشعارين: العسكري، والديني. ومع أنَّ من الخلاف الّذي كان ينشب بين الحين والآخر بين العسكريين ورجال الكنيسة إلّا أنَّ الفريقين كانا يتحدّان ضد القوى السياسية الجديدة، وكذلك كانا يتحدان لمساندة

(1)- إشارة إلى أن الغزو الإسباني للقارة قام على أكتاف الغزاة والمبشرين.

الملك، ولاسيّما حينما يحصل من الفاتيكان على حق الدعاية للسلطة الملكية: بمعنى السيطرة على تعيين السلطات الكنائسية في إسبانيا ومستعمراتها[2].

أولاً– اكتشاف أمريكا قبل كولومبس[3] :

ثمَّة عناصرُ وأحداثٌ شتَّى في تاريخ العالم القديم وأساطيره تلقي بظلالها على شهرة كولومبس الاكتشافية. ونظراً إلى أنَّه وُجِدَ كثيرٌ من التناقضات في تاريخ حضارة أمريكا، واكتُشِفَتْ آثارٌ لزوَّارٍ من العصر القديم في أمريكا ما قبل كولومبس فإنَّ علم الأمريكيَّات(التاريخ الأمريكي) مازال منشغلاً بالنقاش الآخذ مجراه بحدّةٍ للإجابة عن السؤال متعدِّدِ المناحي العلميَّة: هل الثقافة الأمريكية نابعةٌ من ذاتها أم أنَّها متأثرةٌ بالغرباء؟.

في هذا النزاع يقف المدافعون والخصوم من بعضهم بعضاً موقف العداء موقفاً لا يقبل المهادنة، قلَّ ذلك أم كثر. فالمدافعون يعتمدون دوماً وباستمرار على الهجرات عبر طريق البيرنغ، وعلى التقارب عندما يضطرُّون لإيجاد شرح المتطابقات الواضحة والكثيرة بين العالم القديم والجديد. ونظرة التقارب تشتق الحلول ذاتها في المواقف الحياتيَّةِ الإنسانيَّةِ المعنيَّةِ ومن الطبيعةِ الفكريَّةِ نفسها. وعلى النقيض من ذلك يعرض الخصوم التنويه إلى طريق البيرنغ[4] "Bering" بصورةٍ نسبيَّةٍ، لأنَّهم لا يرونه ذا أهميّةٍ إلا في عصر ما قبل التاريخ، في حين تشير المتوازيات الَّتي جرت عبر الأطلسيّ إلى اتصالاتٍ

(2) رودريجث، أوخينيو تشانج: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 1997م، ص 119–120.

(3)– لن نتطرق في هذا البحث إلى معرفة العرب المسلمين بالقارة الأمريكية قبل كولومبس بمئات السنين، نظراً إلى كثرة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: **سيمون الحايك: والعرب شاركوا في الاكتشاف أو كريستوف كلمبس، لبنان 1991**م. وقد تناول هذا الباحث بشيء من التفصيل المعرفة العربية والإسلامية بأمريكا وأشهر العلماء الذين أتوا على ذكر القارة الأمريكية ومنهم ابن حوقل، المقدسي، البيروني، ... الخ.

(4)–**مضيق بيرنغ:** مضيق يربط بين المحيط المتجمد الشمالي مع بحر بيرينغ ويفصل بين قارتي آسية وأمريكا الشمالية في أقرب نقطة لها. اكتشفه فيتوس يوهانسن بيرنغ (1681 – 1741) رحالة بحري وضابط في الجيش الروسي والربان البحري ترأس البعثتين الجغرافيتين العلميتين في شبه جزيرة كامتشاتكا وبلغ ساحل شمال أمريكا واكتشف عدداً من جزر أليوت. وقد أطلق اسم بيرينغ على جزيرة ومضيق وبحر.

جرت في العصر الحديث. والحقُّ لا يعدُّ هذا الرأي جديداً، فقد أبدى الأوربيون – بعيد الاكتشاف أو بالأحرى الغزو الذي قام به الإسبان – استغرابهم من وجود أفارقةٍ سود في أمريكا، وهذا يقوّي الاعتقاد بأنَّ كولومبس لم يكن أوَّل زائرٍ لأمريكا في العصر القديم(5).

وعلى أيّة حال فهناك عدَّة نظرياتٍ معاصرةٍ تناولت مسألة بلوغ القارة الأمريكية أكّدت أنَّ حضاراتٍ مختلفةً تحدثت عن القارة الأمريكية، أو أشارت إليها بشكلٍ أو بآخر. وقد ذهبت بعض تلك النظريات إلى أنَّ الهجرة إلى القارة لم تتمَّ عبر مضيق بيرينغ، وهي نقطة العبور التي تربط أمريكا الشمالية بآسية من جهة القطب الشمالي، وهذا ما أكَّدته البحوث الَّتي قامت بها عالمة الآثار البريطانية **نيد غيدون**"**Ned Gideon** "، فقد رأت أنَّ الشعوب القديمة وصلت إلى أمريكا من عدَّة جهات عبر البحر، ولا سيَّما أنَّها كانت تعرف قوانين الملاحة اللَّازمة، وتمتلك القوارب الكفيلة بالوصول إلى هناك.

فقد كان الإغريق السبَّاقون في هذا المجال لكثرة كتاباتهم وما تبقَّى من هذه الكتابات التي شكّلت ميراثاً مهماً لحضارات الشعوب الأخرى. فقد كتب أفلاطون "***حوار طيماوس***" سنة 380 ق.م. وذكر أنَّ جدَّه كريتياس حظي بمخطوطٍ للمشرّع الكبير صولون، دُوِّنت فيه أخبارٌ مهمّةٌ عن تاريخ بلدانٍ عدّة وجغرافيتها ، فيقول كريتياس: إنَّ العلماء المصريين أوضحوا له موقع أطلنطا وتاريخها الَّتي غرقت نهائياً في المحيط الأطلسي بعد أن قوَّض أركانها زلزالٌ قويّ. ويتكلَّم أيضاً عن وجود جزر الأنتيل في الأطلسي، وأراضٍ واسعة الأرجاء بعيداً جداً ما وراءه. وهذه الأرض الثابتة هي قارةٌ حقيقيةٌ(6). ومنذ تلك الأيام سمّي البحر الكبير الممتدُّ حول أوروبا وإفريقية بالمحيط الأطلسي(7).

(5) هاينكه زودهوف: معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب حسين عمران، مكتبة العبيكات، الرياض 2001، ص 27-28.

(6) نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهنود والعرب، دار الفارابي، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، 2006م، ص 18-19.

(7) Le Vicomte H.,Onffroy de thoron, L'Amérique Equatoriale. Son Histoire pittoresque et politique, Paris 1866, p. XT.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحدّ، فهناك حضاراتٌ قديمةٌ وعريقة أخرى تحدَّثت عن الوصول إلى القارة الأمريكية، ومن تلك الحضارات الّتي لا يمكن إغفالها الحضارة الفرعونية الّتي دامت أكثر من خمسة آلاف سنة، وبلغت مراحل متقدّمة جداً في مختلف المجالات، ولاسيّما مجالات الملاحة. فهناك عدّة دراساتٍ واجتهاداتٍ تتحدَّث عن وجود آثار الحضارة الفرعونية ومعالمها في القارة الأمريكية.

وكذلك يمكن أن نتحدَّث عن الجانب اللُّغويِّ في وسط القارّة على وجه الخصوص، فقد دُوِّنَ كتابُ المايا المقدّس "**البو بول بو**" برسومٍ وصورٍ تحاكي تلك الرسوم المعتمدة في اللَّوحات الفرعونية القديمة، كما يمكن أن نجري مقاربةً بين المفاهيم الهنديَّةِ القديمة، والمفاهيم الفرعونية، ولا نتحدَّث هنا عن مقاربةٍ دقيقةٍ بل عن بعض التشابه بين الحضارتين من حيث المفاهيم القديمة (الغيبيات، والعالم الآخر، والبنية الاجتماعية، وألوهية الملك والحاكم، ...إلخ).

كما نستطيع التحدُّث عن المباني الضخمة الَّتي كانت تقام في بعض المناطق الأمريكيّة، ولاسيّما مناطق أمريكا الوسطى والمكسيك. تلك المباني الهائلة المشابهة للأهرامات، وهي تسمَّى أيضاً (الأهرامات) مع وجود اختلافاتٍ نسبيَّةٍ في هيكلها واستعمالها. فهذا كلُّه يوحي باحتمالات وصول الفراعنة إلى هناك[8].

وكذلك استطاع الفينيقيون تأسيس عددٍ من المدن الساحليَّة الاستعمارية مثل: (ممفيس وقبرص، وأوتسيكا في شمال إفريقية) كما استطاعوا تأسيس قادش في القرن الثاني عشر قبل الميلاد الَّتي امتازت بوقوعها في ممرّ جبل طارق، وهذا يدلُّ على تجرُّؤ الفينيقيين على التوجُّه نحو الأطلسي. ومن المعروف أن قرطاجة كانت تعدُّ أهمَّ مدينةٍ مستعمرةٍ فينيقيةٍ، فقد كانت مهيَّأةً من خلال موقعها المركزيّ في تونس على ساحل شمال إفريقية لتتبوَّأ مركزاً مهيمناً ضمن مدن المتوسط التجارية. وبعد أن تأسَّست قرطاجة كابنةٍ لمدينةِ صور ارتبطت أولاً خلال عدّة قرون بعلاقة صلة مع المدينة الأمّ الواقعة

(8) نبيل خليل خليل: المرجع نفسه، ص 19–20.

على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط. غير أنَّ هذا الوضع تبدَّل في القرن السادس قبل الميلاد، عندما تمكَّنت قرطاجة من انتزاع السيطرة بسبب تغيّر الأوضاع السياسيَّة في الساحل الشرقيِّ نتيجة الغزو البابلي للمدن الفينيقية، وفرض الحصار على عاصمتهم صور، وتمكَّن الفينيقيون من الهروب من المدن المحاصرة باتجاه جزر الغرب النائية عن طريق قرطاجة. ولكنَّ القرطاجيين حاولوا منع سكان المدينة الأم المهمومة من تأسيس مستعمرةٍ في الغرب النائي. وعلى هذا الأساس ولتأكيد هذا المنع ولإقامةِ حاجزٍ لمنع هروب اللاجئين الفينيقيين أغلقت قرطاجة في عام 540 قبل الميلاد ممرَّ جبل طارق تجاه السُّفن الأجنبية كلّها. وهكذا ظلَّ هدف الهروب "**الجزر النائية**" مفتوحاً أمام القرطاجيين سنوات عدّة[9].

ونتيجةً للتفوُّق البحريِّ الفينيقيِّ، كلَّف الفرعون المصري نيشو (نخاو الثاني)، عام 60 ق.م.، الفينيقيين بالإبحار في أسطولٍ من السُّفُن للالتفاف حول القارَّة الإفريقية منطلقين من البحر الأحمر عبر ممرٍّ جبل طارق، على أن يعودوا بأسرع ما يمكن إلى مصر ثانية. وكما يذكر هيرودوت فقد احتاج الفينيقيون لهذه الرحلة سنتين كاملتين، لأنَّهم قطعوا رحلتهم عدَّة مراتٍ لكي يزرعوا القمح على شواطئ إفريقية، وبهذا يكون القمح زادهم في الرحلة التالية. وقد اقتبس هيرودوت جزءاً كبيراً من التفاصيل الَّتي ذكرها عن هذه الرحلة من كتاب "**أسفار فينيقي**" ومع عدم قناعته بما كُتِب في هذا الكتاب، إلا أنَّه اقتبس منه ما يأتي: "**عندما أبحرتِ السفينة حول الرأس الجنوبيِّ لإفريقية رأينا الشمس ظهراً على ناحية اليمين**"[10]. ولم يكن بمقدور هيرودوت كإنسانٍ يعيش في النصف الشمالي من الكرة الأرضية أن يتصوَّر بأنَّ الشَّمس تقف في نصف

(9) هاينكه زودهوف: المرجع نفسه، ص 35-37.

(10) هيريدوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبوظبي 2001، ص 307-308.

الكرة الجنوبيِّ، أي في رأس إفريقية الجنوبي، وأنَّه عند الإبحار باتجاه مسار الشرق–الغربي تبدو الشمس فعلاً من موقع قيادة السفينة كما لو أنَّها يجب أن تسطع غرباً.

وبعد بضعة عقودٍ تمكَّن القاضي القرطاجي هانو من الإبحار حول إفريقية في الاتّجاه المعاكس. فقد شرع يرحل برحلةٍ تحوي ستين مجدافاً لكي يؤسِّسَ على طول السَّاحل الغربيِّ لإفريقية مستعمراتٍ جديدةً للفينيقيين. وحافظت آثار هؤلاء المستوطنين الفينيقيين على نفسها في الشاطئ الإفريقيِّ الغربيِّ مدَّةً أطول من سلطة الفينيقيين على السَّاحل الشرقيِّ. وفي القرن الأوَّل ذكر المؤرِّخ الإغريقيُّ **سترابون** أنَّه كان يجري التحدّث باللُّغة الفينيقية في الشاطئ الغربي الإفريقي مع أنَّ السكَّان هناك كانوا من الأفارقة السُّود. وكان الفينيقيون أنفسهم قد هربوا قبل مدَّةٍ طويلةٍ باتجاه الغرب كي يستقرّوا في الجزر النائية، وقد استغرقت تلك الرحلة ثلاثين يوماً من الإبحار. هذا ما يدلي به سترابون الَّذي يقتبس من الأفارقة أقوالهم الدَّالّة على منطقةٍ نائيةٍ تقع في الغرب الَّتي لم يعرفوا عنها شيئاً سوى الأحاديث.

ويتَّفق هذا الوصف مع ما أورده أرسطو في كتاب "**المنطقة المجهولة**" الّذي يتحدَّث فيه عن مدنٍ فردوسيةِ الجمال، بغاباتها وثمارها تقع في الغرب البعيد، أنهارها صالحةٌ لاستخدام السفن، فيها جبالٌ عاليةٌ. ومن المعروف عن أرسطو أنّه لم يكن خيالياً، ولهذا يمكن القول: إنَّ أرسطو كان يعكس في وصفه الواقع العلميَّ الدقيق لعصره. ثمَّ إنه ليس من الضروري التمسُّك بتعبير جزيرة؛ فمن الطبيعي ألا يخطر في ذهن بحارٍ يرى من بعيدٍ عند الأفق أرضاً مجهولةً أن تكون تلك الأرض قارةً، بل إنَّ أكثر ما يتبادر إلى ذهنه مصطلح "**الجزيرة**".

ويشير المؤرخ ديودروس سيكولوس إلى أنَّ الفينيقيين"**أخبروا العالم كلَّه عن هذه الجزر بعد أن تعرَّفوا جمال البلاد المجهولة وخصوبتها** "[(11)].

(11) المرجع السابق، ص 38–40.

وعن هذه الجزر كتب تيوبومبوس أحد أشهر مؤرخي القرن الرَّابع قبل الميلاد، عن "**وجود جزرٍ عظيمةٍ ما وراء العالم المعروف في مكان ما في الأطلسيّ**". وكذلك ذكر كلاديوس في القرن الثاني الميلادي جزراً لها علاقة مع قادش الميناء المثالي للانطلاق إلى هذا الهدف الثاني. وكذلك تحدّث منستوس آفينيو أحد أهمّ المؤرخين في القرن الرابع الميلادي عن رحلةٍ بحريَّةٍ استغرقت أربعةَ أشهرٍ قام بها الأدميرال ميلكو"**Melco** " وصل بعدها إلى جزر سورلينجا غير المحددة جغرافياً.

ومن خلال استعراض هذه النصوص القديمة يتبيّن لنا أنَّ بحَّارة العصر القديم قد استطاعوا عبور الأطلسي، والدليل الأكبر على ذلك: أن بحَّارة العصر القديم كانوا يخشون "**بحر الظلمات**" البحر المرعب ذا الأعشاب البحرية اللَّزجة التي تطفوا فوق الأمواج، وتثبّت السُّفن كأذرع التقاط. فهذا الوصف ينقله إلينا العلماء المعاصرون للبحَّارة الأوائل، فهل هذا مجدَّداً أحد التخيُّلات الَّتي لا تصدق ولا يعوَّل عليها، والَّتي نتَّهم بها أسلافنا؟ بالطبع "لا" فمثل هذا البحر موجودٌ في الواقع، إنّه موجودٌ في الأطلسي إلى الجنوب من جزر برمودا، ويحمل اسم "**بحر سارجاسو**" نسبة لنوع "سارجاسوم باسيغيروم".

فقد كان بحر سارجاسو على الدوام كابوساً ثقيلاً للبحّارة لكلهم. فإذا غضضنا الطرف عن أعشاب البحر المعوقة، لا بل الخطرة لبعض أنواع السفن، فقد كانت هناك مدد محددةٌ تسكن فيها الريح، ممَّا حدا بالبحَّارة إلى تجنُّب هذه المنطقة قدر المستطاع، ولم يكن بمقدورهم فعل ذلك دوماً. وهذا ما ذكره كولومبوس في كتاب يومياته مؤكداً الرعب الذي سببه بحر سارجاسو لفريق بحارته.

وتدلُّ معرفة بحّارة العصر القديم ببحر سارجاسو إلى أيِّ مدىً توغَّلوا باتِّجاه الغرب. وهو موجودٌ، بحسب ما يراه بحَّارٌ متوسطيٌّ، أمام أمريكا مباشرةً. ولو أنَّ سفينةً من العصر القديم منطلقةً من البحر المتوسِّط وصلت أوَّل مرَّةٍ إلى بحر سارجاسو لما

تبقَّى إلَّا مسافةٌ قصيرةٌ تقطعها للوصول إلى تلك الشواطئ الَّتي توجَّه إليها كولومبوس بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام[12].

ثانياً–الإسهام الإيجابي للأيبيريين في أمريكا اللاتينية:

مع ما ذكر كلّه من الجوانب السلبيَّة في الاستعمار الإسباني للعالم الجديد، فهذا لا يمنع من تقييم الإسهامات الإيجابية الَّتي قام بها الإسبان في أمريكا اللاتينية، فإليهم يعود الفضل في جعل أمريكا اللاتينية تتصل بالحضارة الغربية. وكذلك في ضمِّ جزءٍ كبيرٍ من الفكر، والثقافة، والشخصية الغربية إلى هذا العالم الجديد. وقد اُسْتِخْدِمَ كلُّ ما جلبه الإسبان كقاعدةٍ لانطلاق الثقافة والحضارة الحاليَّةٍ في أمريكا اللاتينية. حيث إنَّ النُّور الَّذي أتى من الغرب سيضيء ويتوهَّج بشدَّة بداية القرن الثامن عشر، وسيتألَّق في القرن التاسع عشر.

وكذلك فإننا نجد أنَّه فضلاً عن إدخال استخدام الحديد والدراجة الَّتي استخدمت كوسيلةٍ للانتقال، فإنَّ الإسبان قد جلبوا معهم إلى العالم الجديد حيواناتٍ جديدةً، ولا سيَّما الحصان الَّذي ربما من دونه لم يكن ليتمَّ الغزو. كما أنهم أحضروا معهم أبقاراً، وخرافاً، وخنازير. هذا فضلاً عن الأنواع الأخرى من الكلاب والحيوانات الأليفة.

كما أنَّهم آثروا الزَّراعة بنباتاتٍ جديدةٍ مثل: القمح، والعنب، والبن، وقصب السكر، وأشجار التوت، وعدد من أشجار الفاكهة، مثل: التين، والليمون. وهذه الأشجار الجديدة غيَّرت مجريات الاقتصاد، وأثرت في النظام الغذائي في القارّة.

وكذلك يعود الفضل للإسبان في إدخال الحديد والاختراعات العظيمة، مثل: البوصلة والورق، والمطبعة، والحرير، والبارود. الأمر الّذي أدّى إلى توسيع أفق الحضارة في العالم الجديد[13].

(12)هيريدوت: المرجع نفسه، ص 40–44.

(13) رودريجث: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص 117–118.

وكانت المدن، منذ وقتٍ غير بعيد، هي مراكز الحضارة، وكانت المدينة في بعض الحضارات الأمريكية الهنديَّة العظيمة هي مراكز السلطة المدنية والعسكرية والدينية، ومن هنا نجد أن الجهود تركّزت على تشييد المعابد والقصور، في حين كان القرويون يعيشون في الأكواخ. وقد اتبع الإسبان -إلى حدٍّ ما- العادة نفسها في تشييد المباني، أو إضافة بروزٍ إليها، ولاسيّما المباني الخاصة بالسلطات الدينية المدنية. ومن جهة أخرى قاموا بإدخال النظام الإغريقي الروماني على المدينة. وهذا النظام عبارةٌ عن ميدانٍ توجد من حوله الشوارع مرسومةً على هيئة لوح شطرنج، ويوجد المجمع المدني والكنيسة رمزياً في هذا النظام كلّ منها بمواجهة الآخر، حيث يستشعر بنبض المستعمرة، إذ إنّه يعدّ المركز الحيويّ للنشاطات المدنية، والعسكرية، والدينية، حيث يمكن مشاهدة الفرق الموسيقية وهي تعزف، وكذلك مشاهدة العروض العسكرية، ومصارعة الثيران والعروض المسرحية، والمواكب الدينية، إذ تجتمع العائلات، والسلطات التَّي ترتدي أفضل ملابسها.

ومن بين هذه المدن كلّها كانت مدينة **المكسيك** المدينة الرئيسة، فهي تعدّ من أكبر مدن القارة وأجملها حتَّى بدايات القرن التاسع عشر. وكذلك كانت مدينة **بوتاسي** التي تقع بجوار أغنى منجم فضةٍ في العالم، ومدينة **ليما** الَّتي تقع على بعد خمسة أميالٍ من المحيط الهادئ، والَّتي كانت بحقّ تستحقّ اسمها كمدينة للملوك.

وإلى جانب هذه الإسهامات المدنية كانت هناك إسهاماتٌ ثقافيّةٌ، ومن ذلك اللُّغات اللاتينية (الإسبانية والبرتغالية) والكتابة بالحروف، أضف إلى ذلك المذهب الكاثوليكي، والفلسفات الجديدة تجاه الموت والحياة، والمفاهيم الجماليّة الجديدة في الفنون التشكيلية، المسموعة والمرئيَّة. فقد أدخلت هذه الإسهامات كلُّها العالمَ الجديد إلى الحضارة الدوليَّة وحياة العالم[14].

(14) رودريجث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص 118-119.

وأخيراً يمكن القول: إنَّ إسبانيا حينما نشرت ثقافتها في العالم الجديد قدَّمت كلَّ ما لديها في ذلك الحين، وقد أعطت نظرتها الخاصَّة لمذهب الإنسانيَّةِ الماديَّةِ، والتيار الفكريّ، كذلك التربية الأرستقراطية والتأملية بدلاً من الرؤية الديمقراطية والتجريبية.

ثالثاً– الجوانب السلبيَّة للاستعمار الأوروبيّ:

1ً– استعمار القارَّة الأمريكيَّة من الوجهة الأخلاقيَّة والقانونيَّة:

أ– نقد السياسة الدينيَّة الإسبانيَّة:

وضِع الغزو الإسباني أمام المسألة القانونية الآتية: "**هل يحقُّ لهم احتلال الهند الغربية؟ وهل يحقُّ لهم استعباد الهنود؟**". وقد نتج عن ذلك سيلٌ من الرسائل والمذكرات والكتب بين مؤيِّدٍ ومعارضٍ. ولمَّا استطلع ملوك إسبانيا رأي أتباعهم من أصحاب النفوذ في كلِّ ما يتعلَّق بالهند، جاءت النتيجة: إنَّ للملك حقَّ تملُّك البلاد، وأنَّ له حقَّ الفتح. واستندوا في رأيهم هذا إلى المرسوم الذي منحه البابا ألكسندر السادس بورجيا في 3 أيار 1493م.

فقد قام البابا – بعدما بلغه "**أنَّ هذه الشعوب نفسها، التي تعيش في الجزر المذكورة، وشتَّى مناطق البرِّ الجديد، تؤمن بإلهٍ واحدٍ، الخالق في السماء، وتبدو مستعدة استعداداً كافياً لاعتناق الإيمان الكاثوليكي، وتلقِّي مبادئ أخلاقية قويمة**" – بتعيين الملكين فرديناند وإيزابيلا "**سيدي الأراضي التي اكتشفت والتي ستكتشف، مع ما يستلزم ذلك من صلاحيةٍ، وسلطةٍ كاملةٍ حرة مطلقة**". ومن لقب السَّادة هذا استنتج ملوك إسبانيا أنَّهم مالكو العالم الجديد. ولهذا أصدر شارل الخامس عام 1519م أمراً بضمِّ العالم الجديد كلّه إلى أقاليم تاج قشتالة الملكيّ. ولهذا السبب أيضاً عدُّوا أنَّ لهم الحق، في أرضهم، في إخضاع الهنود.

ولكن هل كان من حقهم استعبادهم يا ترى؟ لم يخامر الشكُّ المستعمرين وعلماء نظريات كثيرين في ذلك. وكان **أوفييدو** أبعد هؤلاء تأثيراً. فقد قدم نظرياته منذ عام 1519م، وعاد إليها في كتابه "**موجز في طبيعة الهند**"، ثمَّ في كتابه "**تاريخ الهند العام**"،

الذي يعكس روح المستعمرين. يستصوب أوفييدو نظرية أرسطو؛ هناك أعراقٌ يُعِدُّها تخلُّفُها للعبوديَّةِ بموجب الحقّ الطبيعي. والهنود من هذه الفئة. فهم كسالى، وفاسدون، وسوداويون، وجبناء، وكاذبون، وبهائم، زواجهم من الطقوس المدنِّسة للمقدسات. وهم فوق هذا وذاك عبدة أوثان، وشهوانيون، وشاذون، لا يفكِّرون إلا بالمأكل، والمشرب، وعبادة الأصنام، وارتكاب الفواحش. من هنا يجوز إباداتهم لأنَّ الله يعاقبهم، على غرار معاقبة سدوم وعمورة، بسبب خطاياهم الجنسيَّة. ولذلك يجب استعبادهم بالقوَّة إلى الأبد لأنَّ تحويلهم إلى شعوبٍ متحضِّرةٍ أمرٌ مستحيلٌ.

من جانبٍ آخر أثبت آخرون، خلاف ما ذهب إليه أوفييدو وأنصاره، فرأوا أنَّ الهنود كائناتٌ عاقلةٌ يجب معاملتهم كالإسبان، لكن بتحفُّظٍ ومداراةٍ، لأنَّهم متأخرون حضارياً، كما هو واضح. وهذا هو جوهر نظرية الدومينيكانيين، ولاسيَّما نظرية عالم النظريات السياسيَّة الشهير في جامعة سلمنكا "**فرنسيسكو دي فيتوريا**"، الَّذي توفَّى في عام 1549م. ففيتوريا يجاهر بأنَّ هنالك خارج الحقائق الموحى بها، نظام زمانيّ، أو حقٌّ بشري، يمكن إدراكه على ضوء العقل وحده. وهذا الحقُّ الطبيعيُّ هو مرتكز "**النظام والاتفاق**" وأساس المجتمعات كافة. فهذا "**النظام والاتفاق**" واحد للكائنات العاقلة كافة، من مسيحيين أو غير مسيحيين. ولمّا كانت الهنود كائناتٍ عاقلَة، من حيث إنَّهم بشر فهذا يعني أنَّ الحقّ الطبيعي يشملهم كما يشمل الإسبانيين. لذلك كانت لهم حقوق الإسبانيين الطبيعيَّة كلّها، الحريَّة، والتملُّك، والقدرة على حكم أنفسهم[15].

إنَّ الآراء الَّتي جعل منها فيتوريا علماً سيأسية، قد أطلقها، أول مرة، "**مونتسينوس**" في عظته في إسبانيولا يوم الأحد الواقع قبل عيد الميلاد في عام 1511م. وفيما يأتي خلاصة ما قاله مونتسينوس:" ***الهنودُ كائناتٌ عاقلةٌ؛ فلهم الحقُّ من ثمَّ في***

(15)- برتولومي دي لاس كازاس: المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، د.ت.، ص 17-18.

أن يعاملوا معاملة الإسبانيين؛ ويجب من ثمَّ تلقينهم حقائق الدّيانة لتخليص نفوسهم؛ كما يجب الإبقاء على حرّيتهم، وعدم إنهاكهم بالعمل، وإعطاؤهم كفافهم من المأكل؛ والاعتناء بهم في أمراضهم، ومخالصتهم الودّ. إنَّ الإسبانيين القساة والمستبدين الذين لا يتقيَّدون بشيء من ذلك يكونون جميعهم في حالة الخطيئة المميتة"[16]. إلا أنَّ رئيس الدومينيكانيين في إسبانيا قد حظر على رهبانه في اسبانيولا التبشير بمثل هذا التعليم المشين، بناءً على شكوى المستعمرين وعلى أمرٍ صادرٍ عن الملك.

لكن "**برتلمايو دي لاس كازاس**" قد ناب عن **مونتسينوس** بعد ذلك في موقفه من الهنود. فقد كان كاهناً وصاحب امتياز في إسبانيولا منذ عام 1502م، ثمَّ في كوبا منذ عام 1512م، ووقف موقفاً عدائياً منهم. وبينما كان يعدّ إحدى المواعظ في العام 1514م اقتنع بأنَّ معاملة الهنود كانت ظالمةً واستبداديةً، فتخلَّى عن ممتلكاته، وأعتق هنوده، وغدا نصيرهم المُدافِع عنهم منذ مذكَّرته الأولى عام 1516م إلى ملك إسبانيا[17].

ويرى **لاس كازاس:** أنَّ سلطة الملك على الهنود سلطةٌ غير شرعية، لأنَّ البشر جميعهم أحرارٌ بموجبٍ حقٍّ طبيعيٍّ؛ إذ إنّهم مخلوقون على صورة الله أحراراً ومسؤولين. وكلُّ ما استطاع البابا أن يفعله هو إسناد الإدارة إلى ملوك إسبانيا لمنع الهنود من طرد المرسلين أو قتلهم. لكن ليس لأحدٍ حقٌّ في تخطي هذا الحدّ، أو في تنصير الهنود بالقوّة، أو في استعبادهم لأنّهم بشرٌ كغيرهم. فالإغريق الأقدمون، والتَّتار، والهنود، والإسبانيُّون أفرادُ جنسٍ بشريٍّ واحدٍ، انطلقوا من مستوى واحدٍ، وتوصَّلوا إلى مستويات تقدّمٍ مختلفةٍ بفعل ظروفٍ مختلفة.

(16) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام،7 أجزاء، الجزء الرابع (القرن السادس عشر والسابع عشر)، رولان موسنييه، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، دار عودات، بيروت–باريس، ط2 1987 ، ص 486.

(17)برتولومي دي لاس كازاس: مصدر سابق، ص 17–18.

من خلال ما سبق يتبيَّن أنَّه (كما أكد **لاس كازاس**) لا يوجد شعبٌ في العالم مهما بلغ من قساوته، وبربريته، وخشونته، ووحشيته، يستحيل إقناعه واستمالته، وإعادته إلى النظام، وترويضه، وجعله وديعاً سهل المراس، إذا ما اعتمدنا اللَّياقة، وسلكنا هذه الطريق الطبيعيَّة الخاصَّة بالإنسان بدافع من المحبَّةِ، والحلم، والوداعة، والبهجة. وإذا كنَّا لا ننشد سوى هذه الغاية "**التاريخ الدفاعي**" فمن الممكن ترقية الشعوب كافة إذا ما نظرنا إليها نظرةً أخويّةً، وسعينا جاهدين في سبيل هذه الغاية دونما سعي وراء فوائد شخصية أو قومية. ومن ثمَّ يجب هديهم إلى الدِّين القويم بالملاطفة، "**بإقناع العقل**"، ثم "**بتحريك الإرادة برفق**". فهي الوسيلة الوحيدة لاستمالة الشعوب كافة إلى الديانة الحقيقية[18].

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا: إنَّ الإسبان هم الهمجيون. ففي مؤلَّفه "**بيان موجز في تدمير الهند**" (1542) المرفوع إلى الإمبراطور شارل الخامس، يُظْهِرُ **لاس كازاس** الهنودَ عند قدوم الإسبانيين مطيعين، أوفياء لرؤسائهم، ضعفاء، متبصرين، هادئين، وديعين، صادقين، طيبي القلب، سليمي السريرة، فقراء، مجرّدين من الغايات، متحلّين بذكاء حادٍّ، وجديرين بتقبُّل الإيمان الكاثوليكي المقدس. دخل الإسبانيون ديار هؤلاء المتوحّشين الطّيبين، وكأنَّهم ذئابٌ، ونمورٌ، وأسودٌ تتضوّر جوعاً. فاقتصر عملهم على تقتيل الهنود، وإسخان أعينهم، وتعذيبهم، وإفنائهم بوحشية نادرة. لا بل منعوا الرهبان من التبشير بالإنجيل. وقد دفعهم إلى ذلك كلّهِ تكالبهم على الذهب[(19)].

ومهما يكن فقد أقرّت قوانين "**بورغوس**" مبدأ اللُّجوء إلى منح الامتيازات. وبناءً على مطالبة الدومينيكانيين، أعلن تفسير قوانين بورغوس في عام 1513م أن باستطاعة بعض الهنود المثقّفين معاشرة الإسبانيين، بشرط أن يحصلوا من القضاة على إعلان حريتهم. لكن المستعمرين و**لاس كازاس** اعترضوا على ذلك لأسباب مختلفة.

18 المصدر السابق، ص 22– 23.

(19) المصدر نفسه، ص 24.

وأمام تضارب الآراء، قرَّر الكاردينال "**كسيميليس دي سيسنروس**" إجراء تحقيق بواسطة لجنة تعين لهذه الغاية. فأرسل ثلاثة أخوة إيرونيميين مع " **لاس كازاس** " الذي أطلق عليه اسم "**حامي الهنود**". طرح المحقّقون على كلّ شاهدٍ سبعة أسئلة، صيغ ثالثها على الشكل الآتي: "**هل يعلم الشَّاهد أو يعتقد، أو هل سمع أو لاحظ أنَّ هؤلاء الهنود، ولاسيَّما هنود إسبانيولا، رجالاً ونساء على السواء، يتحلّون بمعرفةٍ وكفاءةٍ تتيحان إعطاءهم حريَّةً كاملةً؟. أهم قادرون على ممارسة حياة سياسية على غرار الإسبانيين؟. هل يستطيعون تأمين حاجاتهم بجهودهم الخاصة، كأن يستخرج كلُّ هنديٍّ الذهب من المناجم، أو يحرث الأرض، أو يؤمن معيشته بعمل يوميٍّ آخر؟. هل يعرفون كيف يستفيدون ممَّا قد يدره عليهم هذا العمل بأن ينفقوا على حاجيات حياتهم فقط كما يفعل العامل القشتالي**[20]**؟**" أجاب المستعمرون كلُّهم بالنفي، وكان أحدهم متزوّجاً من هنديَّةٍ منذ أربعة عشر عاماً. واستندوا في ذلك إلى اختبار الحاكم "**أوفندو**". أعطى هذا الأخير في عام 1508م، الحريَّةَ لرئيسين هنديين متنصِّرَين تعلَّما الكتابة والقراءة، وأتقنا الإسبانية، وكانا متزوجين وأبوي عائلة. جعلهم أوفندو صاحبي امتيازات. لكنَّ هذين الهنديين قضيا ست سنوات أحراراً دون أن يحرثا الأرض، أو يتمكَّنا من إعالة نفسيهما، وتأمين ملبسهما بعملهما. فبدت هذه النتائج حاسمة في نظر إيرونيميين الَّذين جمعوا الهنود في قرى تحت سلطة محافظين إسبانيين وتسببوا بعملهم هذا في انتشار وباء الجدري الفتاك.

اعترض **لاس كازاس** وحصل من الملك الإسباني شارل الخامس على أمر باختبار جديد أجراه خلال عامي (1519م–1520م)، في إسبانيولا "**رودريغو دي فيغوروا**" اختار هذا الأخير عدداً من الهنود ممَّن رأى فيهم الكفاءة، وقدَّم لهم سلفاً أغذية وملابس وأدوات، وعيَّن لهم مناجم ذهبٍ ترك لهم أمر استثمارها، وترك لهم الحريَّة في العمل على هواهم. فجاءت النتيجة إخفاقاً ذريعاً.

(20) موريس كروزيه: مرجع سابق، ص 486.

وفي عام 1526م استطاع المستعمر القديم "**باريونويفو**" الَّذي كان في المستعمرة منذ 24 عاماً الاستشهاد بمثل هنديات كثيرات تزوجن من إسبانيين، أو دخلن الأديرة مخصصات أنفسهن لخدمة الجمعيات الرهبانية. فما أن يصبحن أرامل، أو يخرجن من الدير حتّى يتخلقن حالاً بالأخلاق الهندية، بما فيها العريّ والحرية الجنسية، كما لو أنهم لم يعشن طوال سنوات عيشة أوروبية. وأكد **باريونويفو** بأن لا أمل يرتجى من الهنود عموماً بسبب ضعف تفكيرهم وذاكرتهم. فهم ينسون صلاة "**السلامُ عليكِ يا مريم**" إذا مرَّ يومٌ واحدٌ دون أن يتلوها.

وكذلك أجريت اختباراتٌ أخرى في كوبا، وفنزويلا، وغواتيمالا، وفي المكسيك عند الشيشميك[21]. فجاءت النتيجة إخفاقاً في كلّ مكان. وحاول الإسبانيون بين عامي 1635 و1676م إنشاء مستعمراتٍ ثابتةٍ، يضم بعضها الإسبانيين وبعضها الآخر **الأوتوميس** في الجبال التي لجأ إليها الشيشميك، ثم جمع الشيشميك في قرىً منفصلةٍ خاصَّةٍ يتعودون عليها، على غرار جيرانهم المزارعين، حياة الاستقرار والزراعة. فلم يفلحوا في هذه المحاولة أيضاً؛ إذ إنَّ الشيشميك رفضوا الإقامة في القرى، ولم يأتوا إليها إلَّا لبعض الاحتفالات الدينية. وكانوا يقدمون على الانتحار إذا ما أرغموا على حضور القداس بانتظامٍ أيضاً. فكان في النهاية أن أباد الإسبانيون الشيشميك في القرن الثامن عشر. ومن هنا يتّضح إخفاق الإسبانيين باستمالة أقوام القناصين، والصّيادين، والمزارعين الوقتيين.

إلا أنَّ المسيحيين لم يعترفوا بالإخفاق، فقد أعلن البابا بولس الثالث في مرسومه "**الحقيقة نفسها**" المؤرّخ في 2 تموز 1537م، أنَّ الهنود الحمر بشرٌ حقيقيُّون، وأنَّ لهم نفوساً جديرةً بالحياة الأبديَّة، وأنَّ معاملتهم يجب أن تستوحي هذه الحقائق. بيد أنَّ مجمع ليما الثالث الَّذي انعقد في العام 1583م أخذ نتائج الاختبار بالحسبان، واعترف بأنَّ الهنود الحمر مع أنهم بشرٌ إلّا أنّهم بقوا في حالة طفولةٍ، وأنَّ الواجب يقضي بأن تضمن

(21)- **الشيشميك**: إحدى القبائل التي ينتسب إليها السكان الأصليين المكسيك.

لهم كما للقصّر حمايةٌ دائمةٌ. فتولّى اليسوعيون اختبار شيوعيَّة أبوية، في باراغواي كمرحلةٍ أولى، بغية الانتقال بالهنود الحمر إلى الحياة الشخصية. وكان هؤلاء من قبيلة **التوبي غواراني** الَّذين أخفقت في تبشيرهم بعض الإرساليات المتنقلة. وفي عام 1607م أسند ملك إسبانيا إدارة البلاد إلى اليسوعيين بغية تحضير الهنود في قرىً أطلق عليها اسم "**المُعادات**" لأنَّها أنشئت "**لإعادة الهنود إلى الحياة المدنيَّة والكنسيَّة**". وضع الآباء تحت سلطة الملك، ومجلس الهند، ونائب الملك في **البيرو**، وسلطة **مجلس كاراكاس، وشونكيساكا وبوينيس إيرس** القضائية، ورقابة حاكمي **باراغوي وريو دي لا بلاتا** اللذين زارا المعادات زياراتٍ منتظمةً. وطبّق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت سلطة أسقفي **أسومبسيون** و **بوينيس إيرس** اللَّذين كانا يتفقَّدان المعادات[22].

2– الميراث الاقتصادي:

قام الأوروبيُّون منذ دخولهم أمريكا بجميع الجهود الَّتي تهدف إلى تسخير سائر الموارد الاقتصاديَّة فيها لصالحهم فقط دون أن يؤخذ بالحساب مصلحة السكان الأصليين. فبدأووا باتباع سائر السبل الَّتي تكفل تأمين الغذاء الكافي للأعداد المتزايدة من المهاجرين الأوروبيين، واهتمُّوا بالحصول على الثروات المعدنية الَّتي يمكن استعمالها لتجارةٍ خارجيَّةٍ رائجةٍ. هذا فضلاً عن عملهم على الحصول على سلعٍ أوروبيَّةٍ أو محليَّةٍ يستطيعون بواسطتها سدّ حاجة السوق المحليَّة، وتحقيق أرباح كافية. أمَّا السكَّان الأصليون فقد تُرِكَ قسمٌ منهم لأعمال السخرة الزراعيَّةِ في المناطق الَّتي احتُلت بالقوَّة، وطُرِدَ قسمٌ آخر إلى مناطق الغابات أو المناطق الجبليَّة النائية ليمارسوا الزراعة البدائية، أو تربية المواشي، أو صيد الأسماك النهرية[23].

وهكذا تكالب المستعمرون الأوائل لأمريكا اللاتينيَّة من الإسبان على تحقيق المنافع الخاصَّة بهم دون الاهتمام بالسكَّان الأصليين، أو المجموعات البشريَّة غير

(22)موريس كروزيه: المرجع نفسه، ص 486.

(23) ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق 1974م، ص 139.

الإسبانيَّة. فتركوا آثاراً سيّئةً جدّاً في النَّواحي كلِّها البشريَّة، والسياسيَّةِ، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّةِ، وذلك بسبب اندفاعهم بنهمٍ شديدٍ نحو استثمار خيرات البلاد الزراعيَّةِ والمعدنيَّةِ على الشواطئ البرازيليَّة وجبال الأنديز على حساب الشَّعب الهنديِّ الأصيل وفقاً لنظامٍ إقطاعيٍّ ظالمٍ، يُسامُ فيه العمالُ الزراعيون سوء العذاب، سواءٌ أكانوا من أهل البلاد، أم من الجماعات الإفريقيَّةِ السَّوداء الَّتي أتى بها الأسياد للقيام بالعمل الصَّعب في المناطق الاستوائيَّةِ الساحليَّةِ المنخفضة ضمن شروطٍ مناخيَّةٍ طبيعيَّةٍ مضنيَّةٍ[24].

ومع ما يُطْلَقُ على الكشوف الجغرافيَّة، إلا أنَّها كانت نتيجةً مباشرةً لروح عصر النهضة الجديد الذي تسرَّب ببطءٍ لشبه الجزيرة الإيبيرية. وممَّا يدعو للسخريَّة هو أنَّ الغزاة جلبوا معهم إلى العالم الجديد بقايا مخلَّفات الإقطاع الإسباني. إذ إنَّ واحدةً من المؤسَّسات الَّتي أقيمت في أمريكا اللاتينيَّة ما يعرف باسم (المزارع أو الضيعات الواسعة جداً)، وهي عبارةٌ عن ملكيَّةٍ زراعيَّةٍ شاسعةٍ جداً، وقد تنكَّرت منذ عهدٍ قريبٍ بأسماء حديثة مثل: أملاك، وضيعة، وعزبة.

كما أنَّ جزءاً من التقاليد المحافظة القويَّة، ومن أساليب الحياة في المدن الصغيرة كان يرجع إلى العصور الوسطى، وكذلك النظام الاقتصاديّ، وقانون الشرف، والفلسفة الكلامية، والتعصُّب الدِّيني الذي حمته أو دافعت عنه بقوَّةً، وغيرة محاكم التفتيش، هذا كلّهُ كان يرجع إلى العصور الوسطى.

تعرَّضت المؤسَّسات الأخرى مثل: الوصايا على الأهالي وولاة المستعمرات، والخدمة العسكريَّة الإلزاميَّة، وميزات طبقة النبلاء في أمريكا اللاتينيَّة ، إلى تحوّلاتٍ غيَّرت من أصولها الَّتي تنتمي إلى العصور الوسطى.

فقد تمسَّك نوَّابُ الملك بفكرةِ أنَّ الأرضَ هي مصدرُ الثروة، ومع مرور الوقت ظهر أنَّ هذه الفكرة ضارَّةٌ لأنَّها حدّت من وجود صناعاتٍ جديدةٍ من جهةٍ، ومن استغلال مصادر الدَّخل الأخرى من جهةٍ أخرى. وكذلك أصبح الاهتمام بالمناجم وحدها

(24) ساطع محلي:مرجع سابق، ص 81.

وباءً بيد أنَّ أبناء أمريكا اللاتينية تغلَّبوا عليه في بعض الدَّول بعد صراعٍ طويلٍ مع النظريات الاقتصاديَّةِ الجديدة[25].

وعلى أيّ حال فإنَّ احتقار النشاطات اليدويَّة الَّذي كان متأصِّلاً في إسبانيا بين طبقة النبلاء وجد في أمريكا اللاتينيَّة بشكلٍ كبيرٍ، ولحسن الحظّ فإنَّ رفض القيام بالنشاط التجاري، الَّذي كان يعدُّ في إسبانيا نشاطاً مقصوراً على اليهود والمسلمين، لم يستمرّ طويلاً، فقد بدأ النبلاء يشعرون بقيمته شيئاً فشيئاً في العالم الجديد، ومع مرور الوقت، وبسبب افتقارهم، توجّهوا نحو التجارة، وبدأوا يعتمدون على النشاطات التجاريَّة، وذلك لتحسين أوضاعهم الاقتصاديَّة، والمحافظة على صيتهم في المجتمع[26].

ومن جهة أخرى، فإنَّ استغلال الإمبراطوريَّة واستثمارها هو شأنٌ خاصّ من شؤون إسبانيا وحدها، فيحظر على هذه الإمبراطورية أن تنتج أيَّ صنفٍ تنتج مثله إسبانيا. ومن هنا وجدت البيرو صعوبةً في الحصول على ترخيصٍ يسمح لها بزراعة الزيتون في أراضيها المعتدلة. وهي لم تحصل على ذلك الترخيص إلّا بعد التعهّد بعدم تصدير أيِّ شيء من إنتاج هذين الصنفين إلى أي جزء من أجزاء الإمبراطورية الإسبانية التي تتموّن زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم. وحُظِرَ على الإمبراطورية كذلك أن تصنع أيَّ شيء يوجد مثله في إسبانيا. وقد جاء في رسالة أحد نوَّاب الملك الإسباني إلى خليفته: "**إنَّه من الضَّروري الاعتماد على إسبانيا في كلِّ شيء؛ مثل ذلك ينبغي ألا يكون هناك أيُّ أعمالٍ في الغزل والنسيج. وإنَّ الكروم وأشجار الزيتون لا يمكن زراعتها. ولا ينبغي أن يتمَّ استيراد أيِّ قطعة قماشٍ من الصَّين، بحيث القماش، والكرمة، والنفط، والحرير يجب أن تأتي من قشتالة**"[27]. فلإسبانيا وحدها الحقّ بشراء منتجات الإمبراطورية جميعها، كما لها وحدها الحقّ بأن تبيعها ما تحتاج إليه من أمور المعيشة. فإذا ما تعذَّر

(25) MADARIAGA Salvador de , The Rise of the Spanish American empire, the free press, New York 2 edition 1968, p. 127.

(26) رودريجث: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص 121–122.

(27) MADARIAGA Salvador de , *Op.Cit*, P 127

على إسبانيا أن تزوِّدها بما تحتاج إليه، أو أن تستهلك هي نفسها منتجات إمبراطوريتها، قامت إسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها. فغرفة تجارة إشبيلية الَّتي انتقلت عام 1718م إلى مدينة قادش لسهولة دنوّ سفن الشحن من المرفأ، تقوم بتحديد كمية الشَّحن المعدِّ مثلاً إلى الهند الغربيَّة، كما تقوم أيضاً بتحديد الأسعار، وعدد السفن التي تقوم بنقل المؤن والمشحونات.

والحق قد استطاعت إسبانيا – مع كثرة العوائق والظروف غير المواتية – أن تفتح أبواب التجارة لها[28]، فقد كان هناك أساطيلُ تجاريةٌ تؤلّف قوافلَ منتظمةً، تغادر قادش المرفأ الوحيد الَّذي له حقُّ الاتّجار مع أجزاء الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا اللاتينيَّة باتجاه مرافئ بورتو بلو، وقرطاجنة، وفيراكروز، حيث يجري تفريغ الأصناف المشحونة، ثم تباع البضاعة في الأسواق التجارية، وهي أسواق تستمرّ طوال أربعين يوماً، ومنها تنتقل برّاً إلى أطراف الإمبراطورية جميعها. كذلك كانت تُشحن من هذه الموانئ محاصيل بلدان الإمبراطورية.

ولا بدّ من التنويه في هذا المقام إلى أنّ البضاعة الوحيدة الّتي كان يجري نقلها مباشرة بين الإمبراطورية الإسبانية وبلاد المنشأ، هي تجارة الرقيق الَّتي بقيت احتكاراً إنكليزياً، وذلك منذ عام 1713م. فللإنكليز الحقّ بنقل الرقيق مباشرةً من إفريقية إلى بونس إيرس، وقرطاجنة، وبورتو بلو، اختصاراً للوقت وللمسافات، واستعجالاً للمعاملات، لما تتعرّض له هذه البضاعة السريعة العطب من أخطار ومهالك.

وهذا النظام القائم على الحظر، والاحتكار، والاستثناء، الذي فُرِضَ على الإمبراطورية الَّتي اضطرّت للنزول عنده والأخذ به، ألزمها الشِّراء بسعرٍ عالٍ، والبيع بسعرٍ متدنٍ، وقد أدّى ذلك إلى تأخّر مرافق الزراعة والصناعة فيها. ففي هذا النظام المساوئ كلها ، وقد عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي، فالطريقة الَّتي يجري عليها الاستثمار لا تساعد أبداً على توفير ما تحتاج إليه البلاد من رؤوس الأموال والأيدي

(28) *Ibid*,: P 128

العاملة. فإسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البرِّ والبحر، يسلبون الإمبراطورية ما لديها من معادنَ ثمينةٍ، فيقلُّ النَّقد من التداول، وتتأخَّر حركة البيع والشراء[29].

وعلى أي حال فإنَّ تأمين ما يحتاج إليه العاملون في الغابات أخذ يواجه صعوبات، وإنَّ بطء حركة النَّقل، وصعوبة توفير رؤوس الأموال الَّتي لابدَّ منها لتأمين هذه المستلزمات يلتهم رؤوس الأموال الزهيدة الَّتي أمكن توفيرها (مع العلم أنَّه يقتضي ثلاثة أشهر لقطع المسافة القائمة بين بونس إيرس وسلطا، كما يقتضي لقطعها 12 ألف بقرة، و600 مركبة أو عربة). وأعمال النَّقل تستوعب عدداً كبيراً من الأيدي العاملة. فإنَّ ثلث سكَّان كولومبيا، ونصف البونغا في لاباز وبوليفيا هم من البغّالين. وهذه البلاد الكاثوليكية، على طريقتها الخاصة، تعدَّ من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى. فلا عجب أن تفتقر افتقاراً شديداً للأيدي العاملة[30].

3– الميراث الاجتماعي:

كان مجتمع الاستعمار في أمريكا اللاتينيَّة مقسَّماً بشدِّة إلى طبقاتٍ اجتماعيَّةٍ، حتَّى إنَّ الإسبان أنفسهم قد تقبَّلوا الوضع بوجود ***نظام الأجناس***". وقد اتُّبع هذا التقسيمُ الاجتماعيُّ في القارَّة عن كثب الحدود العنصرية لدرجة أنَّه وصل لخلق نوعٍ من الفوارق الاجتماعيَّةِ بناءً على لون البشرة[31].

ونستطيع بشكلٍ عامٍّ تقسيم السكَّان بحسب لونهم إلى: البيض، والهنود الحمر، والأفارقة (الزنوج)، والمستيزيين Mestizos (المولودين من البيض ومن الهنود الحمر)[32]،

(29) *Ibid*., p 131.

(30) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج4، ص 514.

(31) رودريجيث: ثقافة وحضارة، ص 114.

(32) **الكريـول أو المولـدين** (Mestizos): قد أدّى عدم وجود النساء الإسبانيات، لاسيّما خلال العقود الأولى من الاستعمار، إلى حدوث حالاتٍ كثيرةٍ من الاختلاط. لكن نادراً ما كان يحدث تزاوج بين النبلاء الإسبان والهنديات، نتيجة تشدد القانون الإسباني بما يتعلق بعدم السماح للنبلاء بالزواج من الطبقات الدنيا. لكن هذا السبب لم يمنع من وجود حالات كثيرة تزوج فيها النبلاء من هنديات ينتمون إلى الطبقات

والمولاتيين Mulattos (المولودين من البيض والزنوج)، والزامبوزيين Zambos(المولودين من الهنود والزنوج)[33].

إنَّ معظم المهاجرين إلى المناطق الجديدة (القارَّة الأمريكية) في المرحلة الأولى كانوا من الرجال المحاربين، أو من رجال الدِّين، وعندما فترت حمَّى الاستكشاف والغزو بدأت هجرة الجموع العاديَّةِ من الشرفاء، والمغامرين، والمجرمين، والهاربين. وكانت القلَّة منهم تقوم بالعمل بنفسها، والغالبية تسعى لوضع اليد على مصادر الثروة والممتلكات لترغم السكَّان المحليِّين على العمل لمصلحتها. ولهذا كان يتباطأ الاستقرارُ مع الإسراع في الغزو. وعاش المهاجرون، كطفيليين، على تجارة المؤسسات الوطنيَّة، ولم يحاولوا تفهُّم الحياة الَّتي تحيط بهم، واستمرُّوا في جهلهم للُّغة الأصليَّة طويلاً واحتقارهم للعادات الوطنية.

والحقُّ فقد كانت تسيطر على الإسبان الَّذين ذهبوا إلى أمريكا اللاتينيَّة الروح العنصريَّة التي كانت سائدة في بلادهم في أثناء حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش الَّتي شنُّوها ضدَّ عرب الأندلس، وسياسة الاضطهاد القاسية التي اتبعتها محاكم التفتيش ضد العناصر غير الإسبانية، ولاسيما المسلمين[34].

وبشكلٍ عامٍّ فقد حملت موجاتُ الهجرةِ الَّتي أتت من إسبانيا عناصرَ متباينةً من المجتمع الإسبانيّ. فكان من بين هذه العناصر النبلاء الفقراء الَّذين كانوا يصبون بشكل ميئوس منه إلى الثراء، كي يعيشوا في التَّرف والنعيم الَّذي كان مقصوراً على أعلى الطبقات الأرستقراطية. كما كانت هناك أيضاً أعدادٌ كبيرةٌ من الجنود، والمحامين،

الدنيا. أمَّا بالنسبة إلى الطبقات العامة من الإسبان فقد تزوجوا بهنديات وملونين. لأنّ الإسبانيات أحياناً لم يكنَّ بمتناول اليد نظراً إلى قلة أعدادهن.

وقد تقاسم الكريول المناصب (السياسية والدينية والاقتصادية والقضائية) الأدنى مرتبة من الإسبان القادمين من البلد الأم. وقد شكّل هؤلاء الكريول فيما بعد طبقة اجتماعية مهمة في القارة الأمريكية، وبدأت أعدادهم تتزايد تزايداً واضحاً إلى أن تجاوز عددهم عدد الإسبان أنفسهم، وهم الذين نقلوا السلطة إليهم فيما بعد عندما قاموا بما يعرف باسم حروب الاستقلال. انظر: رودريجيث: ثقافة وحضارة، ص 122–123.

(33) المرجع نفسه، ص 116.

(34) ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص 82.

والهاربين من العدالة. أضف إلى ذلك الغزاة الَّذين عاشوا كالشخصيَّات العظيمة، وجعلوا معاملتهم مع الناس على هذا النحو، وأحاطوا أنفسهم بالأبَّهة، وأورثوا هذه الأبَّهة للمنحدرين منهم.

أمّا الإسبّان غير المخلّطين فهم قلّة. وكان كولومبس قد توصَّل إلى تبديل عقوبة الإعدام بالنّفي إلى المستعمرات، تشجيعاً على تعميرها، فوصل مجرمو شبه الجزيرة الأيبيريَّة إلى أمريكا اللاتينيَّة ، وكانوا أول معمريها. وكانت إسبانيا تفضِّلهم على غيرهم من أبناء الدُّول الأوروبيَّة الأخرى، وتقفل أبواب أمريكا اللاتينيَّة في وجه أيّ شخصٍ لم يكن من رعايا التَّاج. وقد قدَّر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بعشرة آلاف شخصٍ في المتوسِّط سنويّاً، ووصل من ذلك إلى مليونين من المهاجرين في القرنيين الأولين للاستعمار، ومليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف خلال ثلاثة قرون، ومنهم مليون من البرتغاليين. وأمّا الأهالي غير المخلَّطين فلم يرتفع عددهم إلَّا إلى 150 أو 200 ألف من الإسبانيين والبرتغاليين بعد قرن. ومليونين بعد ثلاثة قرون. وممّا يلاحظ هنا أنَّ نسبة الوفيات في الحروب، والحمى، والإرهاق، قد فعلت فعلها، وأنَّ الخصوبة الجنسية قد أعطت المخلَّطين أكثر ممَّا أعطت أبناء قشتالة[35].

وقد تولَّى أصحاب هذه الطبقة بشكلٍ عامٍّ أعلى المناصب السياسية، والدينية، والاقتصادية، والقضائية في المستعمرات. ولم يكن يُسمح لغيرهم من باقي الطَّبقات الوصول إلى هذه المناصب.

وممّا يلاحظ على هذا العالم الخارج من رحم الغزو والاجتياح أنَّ مكافأة النصر كانت متمثِّلةً بالشهرة والثروة المعتمدتين على عمل الكتل السكّانية المحليّة الأصليّة. ومن ثمَّ فقد بات المجتمع الجديد مقسوماً من البداية بين أهل الأرض من جهة، والإسبان من جهة ثانية. وصنّفت السكّان الأصليون مجتمعِيْنَ تحت عنوان "الهنود الحمر" رغم وجود اختلافاتٍ واضحةٍ في لغاتهم وثقافاتهم.

(35) جلال يحيى: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج4، ص 234–236.

هذا وقد كان الإسبان الغزاة، وأبناؤهم، وأحفادهم، وجميع القادمين اللّاحقين والمتطلِّعين إلى أن يكونوا في مرتبتهم فوق السكَّان الأصليين، ولذلك تحكّم هؤلاء المستعمرون بالسكان الأصليين، وسخّروهم في العمل في مناجم الذهب والفضة، ومارسوا ضدهم كلّ أنواع القسوة والاضطهاد، وقد نجم عن ذلك حصول موجات موتٍ جماعيٍّ في صفوف السكان الأصليين، فانخفض عددهم انخفاضاً كبيراً. ومهما يكن الرّقم الأساسي، فقد تمخّض عن ذلك التَّدهور هلاك السكان. وبعد أن أدرك الإسبان حجم الكارثة التي تسبَّبوا بها لهؤلاء السكّان اتَّجهوا نحو سياسةٍ استعماريَّةٍ جديدةٍ تقوم على أساس صياغة جماعات هؤلاء السكّان في قوالب حكمٍ غير مباشرٍ، بقيت استقلاليتها الذاتية محددة باستمرار عبر آليات عمل الاستعمار الإسباني الَّذي كان الهنود الحمر يقومون بتزويده بالعمالة الرخيصة والسلع، ويشترون منه البضائع بالإكراه في الغالب.

ولم يكتف الإسبان بذلك، بل عملوا على إدخال حضارتهم، ولغتهم، وثقافتهم، وديانتهم الكاثوليكية إلى القارَّة الجديدة. بيد أنَّ السكّان الأصليين لم يتقبّلوا في أوَّل الأمر هذه السياسة الإسبانية قبولاً حسناً لأنّهم كانوا متأثّرين بموجات الغزو الأولى، وما صاحبها من الاعتداء، والسلب، والتسخير، ممّا جعلهم ينظرون إلى الغزاة الإسبان نظرةً عدائيَّةً. ولكنَّ البعثات الدينية التبشيرية التي أرسلتها إسبانيا سارت جنباً إلى جنب مع حركات الغزو والاستعمار، وأخذت تنشر الكاثوليكية بين السكَّان حتَّى أصبحت أمريكا الوسطى والجنوبية التي تسمَّى أمريكا اللاتينية كلّها كاثوليكية. واستمرَّ الاستعمار الإسبانيُّ قائماً في أمريكا اللاتينية إلى الآن[36].

ومهما يكن فقد نجم عن الروابط الاجتماعيَّة والوفاء للأسرة ما يسمَّى بسلطة الأب على أفراد الأسرة، ومحاباة الأقارب، والمحسوبية، ونظام الأشبين، والخضوع أو التذلل، وتسبَّب ذلك كلّه في ظهور مساوئ كثيرةٍ على مرِّ تاريخ أمريكا اللاتينيَّة. وقد أدّى مفهوم المحبّة أو الإحسان إلى الآخرين، وكذلك غياب المسؤولية إلى ضعفٍ شديدٍ في الهيكل الاجتماعي للشّعب. ومن ثمَّ أسهم هذا الهيكل الاجتماعي المغلق، والتعصّب

(36) عمار فاضل حمزة، أمريكا اللاتينية: تاريخ من الظلم المتواصل، د.ت، ص 24.

الديني، وزيادة الجشع، والدعاية على مستوى كبير مع مرور الوقت في إيجاد أسطورة غياب الموقف الموحَّد الَّذي اتُّخذ ضد الأجناس الأخرى، والتفرقة العنصرية في العالم الجديد.

وليس من الصعب البرهان على عدم مصداقية هذا الرأي، فمن المؤكد أنَّ جزءاً من التَّسامح العنصريّ في العالم الإسباني له تقاليدٌ تاريخيَّةٌ طويلةٌ. وتبرهن الأدلّة التاريخيَّة على أنَّه كانت هناك بالفعل تفرقةٌ عنصريَّةٌ في أمريكا اللاتينيَّة خلال مرحلة الاستعمار، ولكنَّها لم تكن ضارَّةً أو مؤذيةً مثل التفرقةِ العنصريَّةِ الَّتي كانت موجودةً في أجزاء أخرى من العالم آنذاك. ولكن ما نطلق عليه بالأسطورة البيضاء أو أسطورة عدم وجود الموقف العنصري في أمريكا اللاتينية كانت محض خيال وأكذوبةً رخيصةً من السَّهل دحضها[37].

خاتمة:

إنَّ محصلةَ أو نتاج هذا الميراث الثقافيّ، والسياسيّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ الإسباني سواءٌ بجوانبه السلبيَّةِ أم الإيجابية قد تبدَّلت صورته في المناخ الأمريكي الجديد، وذلك باندماجه مع الميراث الأصلي الأمريكيّ والإفريقي؛ إذ بدأت تُشكّل الثقافة الإسبانيّة الأمريكيّة اللاتينية.

إنّ اندماج العناصر الإسبانيّة، والهنديّة، والإفريقيَّة قد خلق فلسفةً مهجَّنةً، كما خلق أيضاً أسلوباً جديداً للحياة، ولذلك فإنَّ التَّهجين في أمريكا اللاتينية يبعد كثيراً عن كونه مجرَّدَ اختلاطٍ جنسيٍّ فقط. وقد بدأ التَّهجين في العالم الجديد منذ السَّنوات الأولى للغزو، وزاد إبّان مرحلة الاستعمار الإسباني، حيث اندمجت عدَّة ثقافاتٍ متباينةٍ بما ورثته من ثقافةٍ، ومع مضي الوقت فإنَّ محصِّلة الأفكار والمشاعر الجماعيَّة، والقواعد الأخلاقيَّة لسكَّان أمريكا اللاتينيَّة وضعت رويداً رويداً قواعد الوعي في القارة.

وهكذا فقد تركَّزت خلال مرحلة الاستعمار الإسباني في أمريكا اللاتينية المظاهر الأولى للكريول أو جموع الإسبان المولودين في العالم الجديد.

(37) رودريجث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص 124.

المصادر والمراجع

أولاً- المراجع العربية

1. الحايك، سيمون: والعرب شاركوا في الاكتشاف أو كريستوف كلمبس، لبنان 1991م.
2. حمزة، عمار فاضل: أمريكا اللاتينية: تاريخ من الظلم المتواصل، د.ت.
3. خليل، نبيل خليل، أمريكا بين الهنود والعرب، دار الفارابي، بيروت- لبنان، طبعة ثانية، 2006م.
4. دي لاس كازاس، برتولومي: المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، د.ت
5. رودريجث، أوخينيو تشانج: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 1997م.
6. زودهوف، هاينكه: معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب حسين عمران، مكتبة العبيكات، الرياض 2001م.
7. كروزيه، موريس: تاريخ الحضارات العام، الجزء الرابع (*القرن السادس عشر والسابع عشر*)، *تأليف رولان موسنييه* ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط2، 1987م.
8. محلي، ساطع: أمريكا اللاتينية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق 1974.
9. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبوظبي 2001م.
10. يحيى، جلال: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ت.، ج4.

ثانياً- الأجنبية:

1. MADARIAGA, Salvador de , The Rise of the Spanish American empire, the free press, New York 2 edition 1968.
2. LE VICOMTE, H.Onffroy de thoron, L'Amérique Equatoriale. Son Histoire pittoresque et politique, Paris 1866.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2012/5/27